المحاضرة الخامسة: أثر الحضارات الأجنبية في الشعر الجاهلي

مقدمة:

يعد الشعر هو السجل الحافل بتاريخ العرب الجاهليين :"الشعر ديوان العرب و صنعتهم كما وصفه كثير من المؤرخين في عالم الأدب و رواة الشعر العربي قديما [1] وبالتالي الشعر هو سجل مفاخرهم و مقيد لغتهم و حروبهم و ثقافاتهم بالرغم من وجود بعض المآثر التي تخلد بعض الوقائع المتعلقة بتاريخ ومآثر العرب الا أن العربي كان يوردها من أجل الفخر و و المدح و التهديد والوعيد أو المباهاة أمام المحبوبة ...و عليه يجب الرجوع الى الشعر الجاهلي من أجل معرفة ما كان خاصل في أيام العرب الجاهليين ، الا أن الشعر الجاهلي ليس وحده المصدر الوحيد لمعرفة هذا التاريخ بل النقوش و الآثار و المصادر التراثية و اللغوية كلها تضافرت من أحل رصد والحفاظ على تاريخ الأمم، ولكن للشعر العربي الجاهلي لدليل قاطع عن رصد حياة العرب والشاعر هو الشاهد العيان على هذه المذكرات التراثية الموثوق فيها للمعايشة عن قرب للأحداث والوقائع وما يمكن ان يتمحور حوله موضوع المحاضرة هو كيف برزت اثار الحضارات الأجنبية في الشعر الجاهلي؟

مفهوم الحضارة:

وللحضارة تعريفات عدة أهمها: ماورد عند ابن خلدون قائلا: "والحضارة إنما هب تفنن في الترف ، وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه و مذاهبه ، من المطابخ و الملابس و المباني و الفرش و الأبنية و سائر عوائد المنزل و أحواله ، فلكل واحد منها صنائع في استجادته و التأنق فيه ، تختص به و يتلوا بعضها بعصا ، وتتكثر باختلاف ماتنزع اليه النفوس و الملاذ و التنعم بأحوال الترف ، وما تتلون به من العوائد"[2]

أما في تعريف **و ل ديورانت** قائلا : الحضارة نظام اجتماعي يُعين الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافي ، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، و التقاليد الخُلُقية ، ومتابعة العلوم و الفنون، و هي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمِنَ الانسان من الخوف ، تحررت في نفسه دوافع التّطلع و عوامل الابداع و الانشاء، و بعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه الى فهم الحياة وازدهارها"[3]

القبائل العربية والأمم المجاورة:

لقد عني الشعر بتسجيل إشارات مختلفة عن الأمم المجاورة للقبائل العربية سواء أكانت في ذكر الحروب معها أم كانت في ذكر المعاهدات التجارية و الصلات السياسية بينهما ، بالإضافة الى استخدام الشعراء الى ألفاظ كثيرة ذات أصول فارسية و سريانية و رومية و حبشية وكلها تدل على مدى قوة العلاقة بينهم وبين العرب منذ القديم ونتيجة للتوزع الجغرافي قي شبه جزيرة العرب وقرب العرب الى الأمم الأجنبية الأخرى سهل عملية الاتصال بين الروم والفرس والحبشيين ومعروف أن دولتي الفرس والروم كانتا قبل الإسلام من أقوى الأمم كونها تقع في موقع تجاري استراتيجي وكانت تحاول اخضاع العرب لها بحكم الحدود المتاخمة لجزيرة العرب وبسبب هذه المجاورة حاولت الفرس اخضاع المناذرة لهم فيصبحوا بذلك تابعين لهم و يساعدونهم في صد العدو و في المقابل حاول الروم اخضاع الغساسنة وضمهم اليهم و جعلهم حلفائهم

---

[1] قال ابن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشعراء : وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم و منتهى حُكمهم، به يأخذون و إليه يصيرون(طبقات فحول الشعراء) سفر الأول ، ً24/

[2] مقدمة ابن خلدون 2: 538_539

[3] عبد الغني أحمد زيتزني: الانسان في الشعر الجاهلي ، مركز زايد للتراث و التاريخ ، ط1، 1421ه/2001م ، الامارات العربية المتحدة ، ص

لصد جيش الفرس عنهم كذلك الحبشة هي الأخرى لم تكن في منآى عن تلك الأطماع اذ قامت باحتلال اليمن ، وحاولت مدّ نفوذها الى الحجاز

الفرس في الشعر الجاهلي:

تعد العلاقة بين الفرس والعرب علاقة وثيقة خاصة ما ورد في الشعر الجاهلي عن علاقة العرب بالمناذرة و ليس هذه الأخيرة فقط وانما علاقة العرب مع مختلف القبائل الأجنبية اذ بحكم التجارة كانت الدول المجاورة تتواصل بعض ملوك الحيرة لضمان أمن وسلامة القوافل وطرقها وبالمقابل كان العرب وخاصة مكة قد وصلوا بتجارتهم قلب فارس ووفدوا الى كسرى وأقاموا معه صلات تجارية وثيقة مثل قافلة نوفل بن عبد مناف على كسرى حيث اتخذها عهدا وميثاقا لتجار قريش"[4]

_ أما عن العلاقات السياسية فيبدوا من الاشعار أن القبائل العربية حول الحيرة بدأت قبيل الإسلام تشعر بضعف كسرى فأخذت تكثر من الاغارة على الأراضي التابعة لهم و على القوافل التجارية الخاصة بهم و هذا تصريح للقيط بن يعْمر الأيَّادي الذي يعيش في الحيرة قد نبههم الى ما يعده لهم كسرى من جيش للانتقام والبطش في قصيدته المشهورة قائلا:

يا قومُ لا تأمنوا، إن كُنْتُم غُيُرا على نسائكم، كِسْرى و ما جمعا

هو الجلاءُ الذي يَجْتَثُّ أصلَكُمُ فمن رأى مثلَ ذا رأيا ومنْ سَمِعا

وحينما ارتحلت إياد الى الجزيرة وجه اليها كسرى ستين ألفا من الجنود بأسلحتهم و عتادهم ، فبلغ لقيطا الخبر فكتب الى قومه يعلمهم بذلك، كما في قوله:[5]

سلامٌ في الصحيفة من لَقيطٍ الى من بالجزيرة من إيادِ

بأن الليثَ كِسْرى قد أتاكُمْ فلا يَشْغَلْكُم سَوْقُ النِّقادِ

أتاكُم منهُمُ ستّون ألفا يُزَجُّونِ الكتائبِ كالجرادِ

ومقال آخر لما انتصرت العرب على ذي قار وعبرت في أشعارها عن زهوها بالعصبية القبلية تجاه الروم وظهر في بعضها شعور بالكبرياء و الأنفة التي يتحلى بها العرب ويتميزون بها عن العجم ويقول في هذا الصدد أبي كَلْبة التَّيْميُّ:

لولا فوارسُ لا مِيْلٌ و لا عُزُلُ من اللَّهازِمِ ما قظتُم بذي قارِ

مازلتُ مفترسا أجسادُ أفْتيةٍ تُثيرُ أعْطافها منها بآثارِ

إن الفوارس من عِجْل هُمُ أنفُوا من أن يُخَلُّوا لكسرى عَرْصَةَ الدارِ

وفي هذه الأبيات التي تبين علاقة القبائل العربية بالفرس تلك التي تقوم على التجارة والمصالح المشتركة وعلى الحرب والاقتتال وفي كل الظروف كانت القبائل العربية تشعر بالتميز عن العجم مما جعلها تحافظ على حياتها القبلية و تكوينها الاجتماعي

الروم: وكانت علاقتها بالعرب شبيهة بعلاقة العرب بالفرس كونها هي الدولة الثاني الكبرى الى جانب دولة الفرس وكان للعرب اتصال مباشر مع الروم في شمال الجزيرة العربية حيث اطراف الإمبراطورية البزنطية و قد اقام الروم حلفا وطيدا مع الغساسنة لمواجهة الفرس و المناذرة و لمنع غزوات الأعراب

---

[4] المرجع نفسه ، ص 41
[5] المرجع السابق، ص 41_42

أراضيهم وقد حفل الشعر الجاهلي في قسم منه بذكر ملوك الغساسنة ، وبالإشارة الى أيامهم مع ملوك الحيرة و الفرس و انتصارهم عليهم كما في يومي "عين أُباغ و "حُليمة" وكانا بقيادة الحارث الأعرج أشهر ملوكهم ولكن مع عدم ذكر النصوص العربية لمواجهات مباشرة بين العرب والروم كما هو الحال مع الفرس وأحسن مثال كذلك على طيب العلاقات بين الروم وقريش التي كانت صاحبة الاهتمام من قبل الروم وذلك لمكانتها الاجتماعية والاقتصادية الهامة الأسواق التجارية الكبرى وقد وردت قصيدة من قبل الشاعر مَطْرود بن كعب الخُزاعي في رثائه لعبد المطلب بن هاشم:

يا أيُّها الرجلُ المُحوَّلُ رَحْلَهُ هلاّ نزلتَ بآل عبد منافِ

الآخذونَ العهد من آفاقها و الرَّاحلون برحلة الايلافِ

وعلى هذا الأساس جاء اهتمام الروم بقريش.

الأحباش:

كانت الحبشة هي الأخرى على اتصال بالعرب وهي من الدول الهامة آنذاك وقد كانت لها اغارات محاولة الاستيلاء على بلاد العرب و قد كانت اليمن لقمة صائغة وقد كانت اشهر غزواتها ، قبيل الإسلام، تلك التي جرت بقيادة أرْياط و أبْرهة ، والتي نجحت في السيطرة على اليمن و إخضاعها للحكم الحبشي و قد كانت لهم روح انتقام على الحجاز و قد اتخذوا ذريعة لذلك ان احد العرب قد دنّس كنيسة لهم وهي القُلّيس وهي كنيسة بنوها باليمن لدعم النصرانية فيها فقد عزموا الذهاب الى مكة و تدمير الكعبة بيت الله و اقدس مقدسات العرب محاولين السيطرة على جعل طريق التجارة بين اليمن والشام تحت سيطرتهم ولكن الاغرة على مكة تحت امرة ابرهة قد باءت بالفشل نتيجة امراض فتاكة المت بهم

وكان ابرهة من هؤلاء المتضررين الهالكين ولم يلبث حتى مات وعاد ما تبقى من الجيش ادراجه مهزوما الى اليمن و قد سمي عام الحملة بعام الفيل لأنها كانت معززة بفيل او بعدد من الفيلة لهدم الكعبة وأشار عبد الله بن الزَّبْعري الى هزيمة ابرهة وجنوده قائلا:

تنكَّلوا عن بطن مكّة إنَّها كانت قديما لا يُرامُ حريمُها

لم تُخْلقِ الشِّعْرىَ ليالي َ حُرِّمتْ إذْ لا عزيزَ من الأنامِ يَرومها

خلاصة : يبدو ان شعراء العرب يؤكدون مدى اتصالهم بالأمم المجاورة و معرفتهم بنظمها الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية ظلوا مخلصين لعصبتيهم القبلية و نظمهم الاجتماعية فيها ولم يؤثر فيها أي عارض بإمكانه ان يفك أواصر القبيلة القائمة على رابطة الدم و النسب وكان الشعر العربي الجاهلي خير حافظ لتلك العلاقات العربية مع الدول الأجنبية التي اتخذها الشعر بالتفصيل

التطبيق: الحرب والسلم في معلقة زهير بن أبي سلمى .

حياته :

تذكر كتب الانساب نسبا مطولا لزهير بن ابي سلمى خلاصته انه مُزنيّ الأب ، ذبياني الأم ، اسم أبيه ربيعة بن رباح ، وكنيته أبو سلمى ، أما أمه فهي أخت الشاعر بشامة بن الغدير ، وهي من بني سهم بن مرة الذبيانيين ثم الغطفانيين.

قصة هذه الحرب ان قيس بن زهير العبسي راهن حذيفة بن الفزاري الذبياني على سباق داحس و الغبراء وهما من خيل قيس والخطّار والحنفاء وهما من خيل حذيفة، وتواضعا على ان يكون مدى السباق مائة غلوة

بمعنى 12أو 18كم بعد تضمير الخيل أربعين ليلة "وأقام حذيفة رجلا من بني أسد في الطريق، وأمره أن يلقي داحسا في الطريق فان جاء سابقا ردّ وجهه عن الغاية

وكان له ذلك مما أدى الى جعل فرس داحس وفارسه قد سقط في الماء وكادا ان يغرقا ولم يخرجا وقد فاتتهم الحرب، واما راكب الغبراء فانه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ، ثم عاد الى الطريق ، وأجتمع مع فرسي حذيفة ثم سقطت الحنفاء و بقي الخطّار والغبراء ثم ان الغبراء جاءت سابقة و تبعها الخطّار ثم الحنفاء ثم جاء داحس بعد ذلك و الغلام يسير به على رسله و أخبر الغلام قيسا بما صُنع بفرسه ولكن حذيفة انكر ذلك وادعى السبق ظلما و قال :" جاء فرساي متتاليين و مضى قيس و أصحابه حتى نظروا الى القوم الذين ضربوا داحسا و جاءه الأسدي نادما على ضرب داحس و أعترف لقيس بما صنع ، وبما أمره به حذيفة" وأبى بن فزارة الذبيانيون ان يدفعوا خطر الرهان و هو عشرون جملا و ادعوا انهم السابقون و لج حذيفة في ظلمه فطعنه فدق صلبه و عادت فرسه الى ابيه عائرة و نادى قيس :" يا بني عبس الرحيل فرحلوا كلّهم" وعلى هذا الأساس بدأت الحرب بين عبس و ذبيان واستمرت مطولا و اقتتل فيها الفرسان بين القبيلتين وحتى الشعراء كعنترة بن شداد وقيس بن زهير ... وبعد حرب طاحنة وصلوا الى دفع الديات من أجل حقن الدماء وأكبر الساعين في الصلح هو الحارث بن عوف و هرم بن سنان.

التعريف بزهير بن أبي سلمى: عايش زهير حرب داحس والغبراء فتأثر بأحداثها الدامية مما جعله يفكر تفكيرا عقلانيا في أمور الحياة فاقتاد الى التخلي عن الحمية الجاهلية فآثر الجدّ على اللّهو و الحلم على السفه ونبذ الشهوات التي تؤدي به الى سوء الخلق بل بالعكس كان ذو أخلاق عالية كارها عجرفية البداوة كان متواضعا في فخره أو وصفه وقال الألوسي عنه: "أن عقله الراجح أفضى به الى الايمان على نحو غامض بالبعث و بقدرة الله على احياء الموتى فكان إذا مرّ بشجرة أورقت بعد يبس قال:**" لولا أن نسبني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحي العظام وهي رميم"**

ديوان زهير ومعلقته:

له ديوان ضخم شرحه العلماء قديما و نشر حديثا من قبل الكثيرين من العرب و العجم و أول من نشره وليم بن الورد أول ناشر به من الأجانب سنة 1770 أما معلقته حوالي تسعة وخمسين بيتا وفق روايتها في شرح التبريزي واثنين وستين بيتا وفق روايتها في شرح الزوزني

ويبدأها زهير بالبكاء على الأطلال في مقدمة طلليه:

أمِنْ أمْ ْ أوْفى دِمْنة لمْ تَكْلَم بحُومانة الدُّراج، فالمُتلثّم

يصف زهير أثار الديار ومرابض الظباء التي ألفتها بعد هجران أهلها لها، ويرسم صورا لحجارة المواقد السوداء، والنؤي المتهدم، ويختم هذا القسم بالتحية على الدار بعد أن تعرّفها.

والقسم الثاني وأبياته تسعة ، وصف مضمّخ بأسلوب قصصي ، يعرض فيه الشاعر مشهد الضعائن ، ومتهاديا تفوق الهضاب ، وعلى سفوح الجبال، وقد بانت عليهن أمارات الترف ، حتى لأصبح منظرهن نزهة للبصر وكنّ في أثناء سيرهن ينثرن قطع الصوف الأحمر ، وهن يسرن الى الماء ، فلما بلغنه أصبن منه ، ثم رحلن مرة أخرى عابرات السوبان بهوادجهن الزاهية.

والقسم الثالث كان أطول الأبيات ويضم مواضيع متنوعة فيها المدح كمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف قائلا:

يمينا لَنِعْمَ السّيدان وُجِدْتُما على كل حال من سحيل وَ مُبْرَمِ

وهذا البيت يذكر فيه زهير ما قام به الرجلان الكبيران من إعادة السلم الى عبس وذبيان، ويطلب من بني ذبيان المتحالفين على إقرار السلم أن يحققوا ما تحالفوا عليه.

ثم يليه وصف لجرائم الحرب بخمسة ابيات ويهجو حصين بن ضمضم ببضعة ابيات فاذا فرغ منه عاد الى المدح الذي شرع فيه.[6]

[6] المرجع السابق ، غازي ظليمات : الأد الجهلي ، اغراضه وقضاياه ، ص